حرية الفكر والاعتقاد
في ظل حكم الدول الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي
ـ الحكم الرستمي والفاطمي نموذجا ـ

د.إسماعيل سامعي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة:

بحث هذا الموضوع يتطلب منا طرح الأسئلة الآتية:ما طبيعة النظامين الرستمي الإباضي؛ والفاطمي الإسماعيلي ؟ وما حجم وجود أهل الذمة في بلاد المعرب عموما؛ وفي فترة النظامين خصوصا؟ وما هي المكانة التي احتلها أهل الذمة من يهود ونصارى ؟ وما نظرة المجتمع إليهم ؟ وما حجم دورهم في مجالات الحياة السياسية؛ والإدارية؛ والاقتصادية؛ والاجتماعية؛ والعلمية؟ وأخيرا ما هي النتائج المحصلة بالنظر إلى مساحة الحرية التي توفرت في هاتين الدولتين أو المرحلتين، والتي تمتعوا بها وفيها ؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات ـ التي هي في الوقت نفسه تحوصل محتوى الدراسة ـ نعرض الموضوع من خلال العناصر الآتية :

❁ **مدخل تاريخي حول طبيعة الحكمين الرستمي والفاطمي:**

إن دراسة حرية الفكر والاعتقاد في بلاد المغرب الإسلامي في فترة النهوض والتطور الحضاري ـ أي خلال أربعة قرون الأولى للهجرة ـ يستلزم الوقوف عند طبيعة الأنظمة السياسية التي قامت فيه، والمبادئ التي تبنتها، لأنها هي التي تحدد مساحة الحريات في مجالاها، وعليه فإننا سنتحدث في هذا المدخل عن النموذجين اللذين سيكونان المحوران اللذان يدور عليهما موضوع الدراسة، وهما النظام الرستمي الإباضي، والنظام الفاطمي الإسماعيلي.

أ ـ النظام الرستمي الإباضي: الدولة الرستمية (160 ـ 296/ 776 ـ 909) هي إحدى الدول المستقلة عن الخلافة الإسلامية في المشرق، وأول دولة في ظل الإسلام التي قامت في المغرب الأوسط (الجزائر)، قاعدتها البشرية قبيلة زناتة إحدى القبائل البربرية العتيدة، وأديولوجيتها السياسية المذهب الإباضي الذي يقوم على مبدأ رفض

التعيين والوراثة في مسألة الإمامة الكبرى (رئيس الدولة)، وقد جعل بني رستم بذلك الإمامة شورى، وجوزوا أن يتولاها من عامة المسلمين متى رضت به الأمة ولو كان عبدا، وأنه يمكن عزله، أو قتله متى خالف[1]، فالأصل عندهم تطبيق مبدأ النظام الجمهوري الذي تكون فيه السلطة العليا للشعب جميعا دون تمييز[2].

ونظام الحكم في الدولة الرستمية أرتكز أساسا على الكتاب والسنة حسبما تقوم عليه قواعد اجتهاد أئمة المذهب الإباضي تحت إشراف إمامها[3].

وهو ما جعل المجال مفتوحا لتعايش عدد من أهل الأديان، والعقائد، والمذاهب من هؤلاء أهل الذمة اليهود والنصارى.

ب . النظام الفاطمي الإسماعيلي: الدولة الفاطمية الإسماعيلية (الدور المغربي 296 . 363/ 909 . 972)، التي قامت هي الأخرى على قاعدة بشرية هي قبيلة كتامة التي تمتد مضاربها في الشمال الشرقي لبلاد المغرب الإسلامي، وكان مذهبها الإسماعيلي، وخلفيتها العقدية.

ويعد قيامها على هذا الأساس العقدي . الأيدويولوجي . في بلاد المغرب من الأحداث المستغربة حقا، حيث أن مذهب الدولة هذا، وهو من المذاهب الشيعية الغلاة، بينما كانت بلاد المغرب الإسلامي سنية خالصة تتراوح بين المالكية والإباضية[4]، إضافة إلى الأدارسة العلويين[5] .

ومنطلقات المذهب الإسماعيلي في عموما فلسفية، والمغرب ليس له في الفلسفة في هذه المرحلة، أكثر من تعاليم الشريعة الإسلامية، إذ أن الدين في مفهومها

---

[1]- الشهرستاني أبو الفتح، الملل والنحل، تحقيق، محمد سيد كيلاني، (بيروت: دار المعرفة،1980/1400)، 116/1.

[2]- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، (الأسكندرية : منشأة المعارف،1979)، 1/ 301.

[3]- الجيلالي عبد الرحمن ، تاريخ الجزائر العام ، (ط، 6 ، بيروت : دار الثقافة،1983/1403)، 166/1.

[4]- يعد المذهب الإباضي بمبادئه وتعاليمه الأصيلة قريب من السنة بل هو السنة نفسها كما يرى أهله، فهو مذهب معتدل في عمومه.

[5]- سعد زغلزل عبد الحميد، المرجع السابق،533/1.

واحد منذ أول الخليقة، والشرائع واحدة، لذلك فهي تدعو إلى العمل بمزيجها، فمن سعادة الإنسان أن لا يتعصب لرأي من المذاهب يقول إخوان الصفا:" فالمسلم هو من يقبل جميع الأديان، والشرائع بتمامها وكمالها "[1]، ولذلك كان للدعوة الإسماعيلية القدرة على إنشاء نطاق يقوي من التوافق المعتقدي يقترب من المذهب العقلي الخالص، والغاء التعصب الديني[2] .

لكن وبعد قيام الدولة الفاطمية الإسماعيلية بالمغرب عدل هذا المذهب عن كثير من غلوه مسايرة للواقع الذي طبعته السنة، والإباضية منذ أمد بعيد.

ولا غروة أن نجد ضمن هذا الاتجاه حظوظا واسعة لتعايش الأديان، والعقائد، والمذاهب، وكان لحرية الفكر دور هام في بلورة هذا التعايش دل على ذلك تلك المناظرات التي كانت تقوم بحضرة الخلفاء الفاطميين[3]، حيث كانت تعقد . لاسيما على عهد المعز لدين الله الفاطمي . مجالس الخلفاء، ومجالس الأدب، ومجالس الدعوة، ومجالس العلوم، ونقل إلينا القاضي النعمان بعضا من تلك المجالس في كتابه الذي سماه بها " المجالس والمسايرات ".

❁ وجود أهل الذمة " المعتقدات " في الدولتين:

لقد كان لأهل الذمة من يهود ونصارى وجودا ملحوظا عبر أنحاء بلاد المعرب الإسلامي، ويعود هذا الوجود إلى سببين أو عاملين هما:

الأول : البقايا السابقة عن الإسلام من أهل الذمة في بلاد المغرب والذين كانوا يعرفون في العصر الإسلامي كما يرى هوبكنز بالمولدين، والعجم، والأفارق، والمعاهدين، والتسمية الرئيسة هي " مولد" التي ترد في أربعة مواضع، حين تحدث

---

[1] – **رسائل إخوان الصفا**، (الجزائر : موفم للنشر، 1992)، 152/4.

[2] – برنارد لويس، **أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية**، مراجعة وتقديمخليل أحمد خليل،(ط، 3 ، بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، 1993)، 1562.

[3] – ابن حمدة ، **المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية** ، (تونس: مطبعة دار الغرب،1406/1986)، 46 . 48 ، إسماعيل سامعي، **القاضي النعمان** رسالة دكتوراه، 2003/14023، ص ، 282.

البكري عن بسكرة، وميلة، وطولقة، وطبنة[1]، ويذكر مارسية أن لفظة المولدين تعني النصارى، ويستنتج هوبكنز من ذلك أن اليهود والنصارى كانوا من السكان الأصليين[2]، والذين احتفظ الكثير منهم بديانتهم مقابل دفع الجزية مما يدل على وجود الكثير من الكنائس في مختلف الجهات، كما احتفظوا بلغتهم حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي مما يدل على عدم إكراههم على ترك ديانتهم[3].

الثاني: أهل الذمة من اليهود والنصارى وغيرهم الذين جاءوا أو جلبوا من المشرق

مع الجيوش، أو ضمن الموجات البشرية، أو التجارة، واستقروا في جهات مختلفة من بلاد المغرب أكثرهم في الحواضر، وبعضهم في الأرياف.

1 ـ في الدولة الرستمية :

لا تذكر المصادر عن وجود أهل الذمة في الدولة الرستمية إلا نتفا، لكن تجميع هذه النتف يبين أهمية هذا الوجود الذي يتميز بالنوعية، وقد اعتمد الكثير من المؤرخين والكتاب في حديثهم عن وجود أهل الذمة في الدولة الرستمية على إشارات ابن الصغير منهم عدد من المستشرقين، لاسيما أن ثمة إشارة واضحة إلى وجود الكنائس والبيع في جبل نفوسة وقراه[4]، ولا ريب أن هذه الكنائس كانت قائمة

---

[1] - **المغرب، في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك،(بغداد: مكتبة المثنى، د ت) ، 561، 562، 64، 72، هوبكنز ج. ف . ب، **النظم الإسلامية في بلاد المغرب في القرون الوسطى**، ترجمة، أمين توفيق أمين الطيبي، (ليبيا/ تونس: الدار العربية للكتاب،1980)، 1246.

[2] - **النظم**، 124، 125 .

[3] - ح ح عبد الوهاب، **ورقات في الحضارة العربية بإفريقية التونسية**، (تونس:منشورات مكتبة المنار ، 1981) ، 306/3.

[4] - عياض القاضي، **تراجم أغلبية مستخرجة من مداركه** ، تحقيق ، محمد الطالبي، (تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1968)، 380، 409 .

في أقاليم الدولة الرستمية بل في عاصمة الدولة نفسها تيهرت، حيث أشار ابن الصغير إلى أحداها فقال:" موضع بالمدينة يعرف بالكنيسة "[1].

وقد أشار أيصا كل من البغطوري و الشماخي إلى وجود اليهود في أقاليم الدولة الرستمية من ذلك أن رجلا يهوديا تخاصم إلى قاضي من قضاة نفوسة على ثمن دابة أعطاها رجل من أهل ويغوا لليهودي فباعها وجحده ...؛ ويعلق الشماخي على طريقة القضاء فيقول: لعل القاضي قد علم مثلها لليهودي أو عنده الخبر ممن يثق به[2]، كما نجد الإشارة إلى مثل ذلك في مسائل نفوسة حيث تحدثت إحداها عن شهادة الذمي، فقالت بجوازها إلا في الوديعة[3]، وفي المسائل أيضا: " وذكرت ثمار الأجنة التي يضعها النصارى والصابيين (لكنائسهم) (وهم معنا تباع وتنفق) إن كانت تشترى أم لا ؟ والجواب: إنها تشترى لأن أهلها جعلوها للكنائس وتنفق أثمانها على الكنائس فبيعها جائز"[4] .

ويتبين من خلال هاتين النازلتين أن وجود أهل الذمة كان معتبرا إلى درجة أن جعلت الناس يطرحون قضاياهم على رأس الدولة الإمام عبد الرحمن بن رستم نفسه لأجل التقنين لها بصورة جد طبيعية ودون تمييز، وهو ما يعطي الانطباع بأنهم كانوا يتمتعون بكامل المواطنة.

وكان التعامل معهم يتم في احترام كامل لتعاليم الإسلام ، وتعاليم دينهم، مع سعي المسلمين على عدم التعدي أو المس بتعاليم أهل الذمة من ذلك مسألة شراء الغنم التي يكره اليهود هل يصلح شراء شيء منه؟ فرد الإمام عبد الرحمن بن رستم

---

[1] - **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق محمد ناصر، وإبراهيم بحاز، (الجزائر: المطبوعات الجميلة، 1986)، 69.

[2] - البغطوري، **سييرة أهل نفوسة**، مخطوط ق 51 = نقلا عن بحاز إبراهيم،**القضاء في المغرب العربي من تمام الفتح حتى قيام الخلافة الفاطمية**،(الأردن: دار الياقوت للطباعة والنشر والتوزيعمركز جوهرة القدس التجاري،2001)، 365 ، الشماخي ، سير 321.

[3] - الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، **كتاب مسائل نفوسة**، تحقيق وترتيب إبراهيم طلاي،(غرداية/ الجزائر: المطبعة العربية، 1991) .

[4] - **نفسه**، 141.

قائلا:" لابأس بشراء ذلك، والله تعالى لم يحرمه علينا في شيء من كتاب، ولا في سنة النبي ﷺ ، وليس ما حرموه على أنفسهم مما لم يحرمه الله علينا"[1]، وكأنه يريد قول الله تعالى :" لكم دينكم ولي دين" [2] ، ومثل هذا تكرر في تاريخنا الجزائري حيث اعتّبر أحمد بن زكري التلمساني[3] (ت 1494/899) فتوى محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 1503/909)[4] بهدم كنائس توات ظلما لأهل الذمة، وقال :" هدم الكنائس المسؤول عنها لا يجوز بمقتضى الشريعة المحمدية على رأي المحققين في الفقه المالكي الناظرين به في القضية"[5]، وبنى رأيه على أن المالكية قضوا بملك الحائز موضعا مدة الحيازة بشروطها، ثم أضاف :" فلا يتعرض لهدمه لأنهم محمولون على أن ذلك أمر أعطوه، حتى يثبت تعديهم في بنائهم؛ فإن ثبت ذلك وجب هدمه "[6]،

---

[1]. نفسه، 137.

[2]. الكافرون ،

[3] – أحمد بن محمد بن زكري التلمساني تعلم في صغره حرفة النسيج، ثم أخذ العلم عن مشايخ عصره ، وتفوق فيه ، وجلس للتدريس، كما له عدة تآليف منها تآليف في مسائل القضاء والفتيل، وشرح عقيدة ابن الحاجب سماه " بغية الطالب " ، " ومنظومته الكبرى في علم الكلام في أكثر من الف وخمسمائة بيت وعيرها" أنظر ، ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان،(الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986)،38.

[4] – محمد بن عبد الكريم بن محمد أبو عبد الله المغيلي التلمساني، ولد بتلمسان ونشأ بها، ورحل إلى بجاية فدرس بها ن وأخذ العلم عن مشايخها ، ترجم له التبكتي في نيل الابتهاج ، من شيوخه لإمام عبد الرحمن الثعالبي، وبعد إتمام دراسته انتقل إلى مدينة توات بالقرب من واحة تقرت في سنة 1479 ثم بتمنطيط بحي أولاد يعقوب ، قبل أن يستقر بتازولت حيث يوجد اليوم ضريحه والزواية التي أسسها. أنظر، أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج .على هامش كتاب الديباج المذهب، (مصر : مطبعة السعادة، 1329/ 1911)، 330؛ الونشريشي أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى عماء إفريقية والأندلس والمعرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف، محمد حجي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي،1401/1981)، 2/ 214، ابن مريم، البستان، 253،عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، (بيروت : دار الثقافة،1403/1983)، 71/3.

[5] – المعيارالمغرب، ، 223/2.

[6] – القرافي بدر الدين، الدُرَرُ النفائس في شأن الكنائس، دراسة وتحقيق ن حسن حافظي علوي، (الرباط:دار أبي قرافي للطباعة والنشر،2003) ، 138.

وكان محمد بن عبد الكريم المغيلي قد تلقى جواب ابن زكري حول قضية الكنائس في توات ومن جملة جوابه:" وأما كنائس البلاد الصحراوية فأقرب شيء في تلك البلاد أنها مملوكة لأهلها بالأحياء والاخطاط، ويبعد فيها أن تكون عنوية أو صلحية، ولا سبيل إلى هدم ما وجد فيها من الكنائس إلا إذا ثبت أن أهل تلك البلاد الذمبين ملكوا الأرض على أن يبنوا الكنائس، وإثبات هذا من المتفق عليه منع الإحداث به، وعلى وجوب الهدم، وإخفاء في عدم ثبوت ذلك، وأما سواه فلا يصح معه الهدم بوجه من الوجوه إلا بوجه العدْوِ والظلم..."[1]

في الدولة الفاطمية :

نحن نعرف أن العرب والمسلمين كانوا متسامحين جدا مع أهل الأديان لاسيما اليهود والنصارى باعتبارهم من أهل الكتاب، ومما يذكر عن التسامح الطبيعي هو أن الفضل بن روح والي إفريقية (177 . 178/ 793 . 794) قد سمح وبشكل عادي ودون رد أي فعل لقسطاس النصراني ببناء كنيسة في القيروان[2]، ولا ريب أن القيروان وهي حاضرة المغرب كانت قد بقيت بها طوائف من هؤلاء، ويذكر المالكي أن الإمام سحنون (160 - 240 / 777 - 854)كان في عهده رؤساء كنائس في القيروان، وكان يستدعيهم ويستقبلهم ويتحاور معهم[3]، وذلك في العهد الأغلبي184 . 800/296 . 909)، بل أزداد عددهم في العصر الفاطمي (296 . 361/ 909 . 972) لأن الفاطميين اعتمدوا عليهم في الجيش، لاسيما الصقالبة، إلى جانب اليهود والذين أسلم الكثير منهم، كما اعتمدوا عليهم في الحياة الاقتصادية كالتجارة، والنظم المالية، وقد أشار القاضي النعمان إلى عبيد الله المهدي الذي اتخذ العبيد من السودان والروم

---

[1] . الونشريشي، المعيار، 2/ 218

[2] – الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، (تونس: رفيق السقطي،1968)،185.

[3] – المالكي أبو بكر ، كتاب رياض النفوس ،تحقيق ، بشير البكوش، ومحمد العروسي المطوي، (بيروت: دار العرب افسلامي،1403/1983)، 380.

عندما دخل القيروان في جيشه وحرسه[1]، ويبدو من خلال هذه الإشارات أنه تعدد وجود أهل الأديان والعقائد، وقد تمتعوا بمكانة سامية لا ريب، لأنهم احتلوا مواقع في سلم هرم المجتمع، ويفسر هذا المواطنة الكاملة التي نالوها سواء بقوا على دينهم أو أسلموا.

وأهل الذمة كانوا نخبة مقربة من الخلفاء الفاطميين، الذين قدموا خدمات جليلة للدولة الفاطمية نذكر منهم جوهر الصقلي، والأستاذ جوذر، وميسور، وقيصر ومظفر، وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي الطبيب، وموسى بن العيزار أو العازار الإسرائيلي الطبيب العالم الذي خدم الخليفة المعز لدين الله، وصنف الكثير من الكتب الطبية منها " الكتاب المعزي في الطبخ" ألفه للخليفة المعز[2]، وجل هؤلاء أسلم، ومنهم من دخل الإسلام شكلا، وكان بعض هؤلاء من النافذين في الدولة كابن كلس اليهودي الأصل[3].

ونخلص هنا إل نتيجة وهي أن أهل الذمة تعددت مجالات نفوذهم وظهورهم في الدولة الفاطمية، فهي مجالات السياسة، والجيش، والعلم والفكر إلى جانب التجارة ميدانهم الأساسي.

❁ مكانة أهل الذمة ونظرة الدولة والمجتمع إليهم:

لقد عاش أهل الذمة من يهود ونصارى حياة طبيعة باعتبارهم مواطنين كباق المواطنين دون تمييز، بل وشكل الكثير منهم طبقة متنفذة اقتصاديا، وسياسيا، وعلميا، وهو ما نبينه فيما يأتي:

---

[1] - **كتاب افتتاح الدعوة** ، تحقيق فرحات الدشراوي، (تونس/ الجزائر : الشركة التونسية للتوزيع، وديوان المطبوعات الجامعية ، 1986)، 303 فقرة، 275.

[2] - ابن أبي أصيبعة ، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق نزار رضا،(بيروت : دار مكتبة الحياة، د،ت)، 545.

[3] - المقريزي تقي الدين ، الخطط ،(القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د، ت)، 268/2 ؛ **اتعاظ الحنفاء**،تحقيق محمد علي أحمد(القاهرة : مطابع الأهرام التجارية، 1996/1416)، 144/1 ؛ المناوي محمد محمود، **الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي** ، (القاهرة : دار المعارف بمصر،)، 241.

1 . **من الناحية الاقتصادية** : شكلوا طبقة غنية لم يصلها أقرانهم من عموم المسلمين لما تمتعوا به من حرية في العمل، وحماية تامة وقانونية في ظل الشريعة الإسلامية، والدولتين الرستمية والفاطمية، من ذلك أن الأحكام الفقهية كانت تضمن لهم هذه الحرية، فقد ورد في المدونة المسألة الآتية: "أَرَأَيْتَ النَّصْرَانِيَّ إِذَا اتَّجَرَ فِي بَلْدَةٍ مِنْ أَعْلَاهَا إِلَى أَسْفَلِهَا وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى غَيْرِهَا ؟ فَقَالَ : لَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ شَيْءٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْ كُرُومِهِمْ وَلَا مِنْ زُرُوعِهِمْ وَلَا مِنْ مَاشِيَتِهِمْ وَلَا مِنْ نَخْلِهِمْ شَيْءٌ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ بَلْدَةٍ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ تَاجِرًا لَمْ يُؤْخَذْ مِنْهُ مِمَّا حَمَلَ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ حَتَّى يَبِيعَ ، فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَرُدَّ مَتَاعَهُ إِلَى بِلَادٍ أَوْ يَرْتَحِلَ بِهِ إِلَى بِلَادٍ أُخْرَى فَذَلِكَ لَهُ ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا إِذَا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ بِحَالِ مَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَبِعْ فِي بِلَادِهِمْ شَيْئًا وَلَمْ يَشْتَرِ عِنْدَهُمْ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ قَدْ اشْتَرَى عِنْدَهُمْ شَيْئًا بِمَالٍ نَاضٍ كَانَ مَعَهُ أُخِذَ مِنْهُ الْعُشْرُ مَكَانَهُ مِنْ السِّلْعَةِ الَّتِي اشْتَرَى حِينَ اشْتَرَى .

قُلْتُ : أَرَأَيْتَ إِنْ هُوَ بَاعَ مَا اشْتَرَى بَعْدَمَا أُخِذَ مِنْهُ الْعُشْرُ حِينَ كَانَ اشْتَرَاهُ ، أَيُؤْخَذُ مِنْ ثَمَنِهِ أَيْضًا الْعُشْرُ ؟ قَالَ : لَا وَلَوْ أَقَامَ عِنْدَهُمْ سِنِينَ بَعْدَ الَّذِي أَخَذُوا مِنْهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ .

قُلْتُ : وَكَذَلِكَ إِنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ مِنْ بِلَادِهِمْ بِمَا قَدْ اشْتَرَى فِي بِلَادِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَخَذُوا الْعُشْرَ مِنْهُ مَرَّةً وَاحِدَةً وَقَدْ اشْتَرَى وَبَاعَ مِرَارًا بَعْدَمَا أَخَذُوا مِنْهُ الْعُشْرَ فَأَرَادَ الْخُرُوجَ ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِيمَا اشْتَرَى مِمَّا يَخْرُجُ بِهِ مِنْ بِلَادِهِمْ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ .

قُلْتُ : وَإِنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ مَالٍ نَاضٍ إِنَّمَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ بِلَادَهُمْ بِمَتَاعٍ مَتَى يُؤْخَذُ مِنْهُ ؟ فَقَالَ : إِذَا بَاعَهُ : قُلْتُ : فَإِذَا بَاعَهُ أُخِذَ مِنْهُ الْعُشْرُ مَكَانَهُ مِنْ ثَمَنِ الْمَتَاعِ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قُلْتُ : فَإِنْ اشْتَرَى بَعْدَ ذَلِكَ وَبَاعَ فَسَبِيلُهُ سَبِيلُ الْمَسْأَلَةِ الْأُولَى فِي النَّاضِّ ، الَّذِي دَخَلَ بِهِ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ .

قُلْتُ : وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ "[1].

---

[1] - الإمام سحنون ، المدونة ، 192/2.

ويبدو أنهم كانوا ارستقراطية تقتني الأرض، وتحتكر استغلال المناجم وتشتغل بالتجارة مع بلاد السودان وغيرها، كما وجدت طبقة وسطى أغلب عناصرها من العناصر الوافدة من مختلف البلاد وفي مقدمتها اليهود[1]، وقد هيمن اليهود . حسب رأي محمود إسماعيل في دراسته ليهود المغرب الأقصى . على النشاط المالي فضلا عن التعدين[2].

وككل أفراد المجتمع كان البعض من هؤلاء يتعرضون للاضطهاد والعقوبات المختلفة، لاسيما وأنهم كثيرا ما كانوا يتعاملون بالربا، والتحايل لكسب المزيد من المال، والعقارات، أوقد يغشون في السعلة، ويغالون في البيع الشيء الذي كان محل متابعة وعقاب، لكنه لم يكن عاما يقول هوبكنز :" وهذا يتفق مع الانطباع العام بأن الاضطهاد النشط لليهود كان دائما حدثا عابرا[3].

أما ما أوردته المصادر حول تمييز أهل الذمة لاسيما ماحكاه المالكي من أنه جعل لليهود والنصارى رقاعا بيضاء فيها صورة قرد وخنزير، وعلى أبواب دورهم ألواحا مسمرة فيها صورة قرد، وضيق على أهل القيروان في الملاهي،[4]فذلك يتصل بمدى التجاوزات والانحرافات في المجتمع عموما، وفي ظروف تاريخية معينة، وليس عاما.

2 . **من الناحية السياسية :** لقد كان لأهل الذمة دور فعال في تسيير أمور الدولتين، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر أي كمستشارين للأئمة وأعوانهم، أو مسؤولين تولوا خططا هامة، لاسيما وأن العجم، وهم أهل الذمة كانوا يشكلون مجتمعا قائما بذاته في تاهرت وغيرها، و لهم حصون خاصة بهم[5]، ولاشك فإن هؤلاء شكلوا ضغطا على الدولة في بعض الأحيان، كما أسهموا في بنائها، وتبقى إشارة هوبكنز إلى المسيحيين

---

[1] - محمود إسماعيل، **الأدارسة في المغرب الأقصى 172 . 375 هـ حقائق جديدة**،(الكويت: مكتبة الفلاح، 1489/1989)،45.

[2] - **نفسه**، 44 .

[3] - **النظم**، 124.

[4] - القاضي عياض، **تراجم أغلبية** ، 223.

[5] - ابن الصغير ، **أخبار الأئمة**، 94.

الذين كان منهم من تولى مناصب سامية في عهد الرستميين في تيهرت، وإلى رجل نصراني يدعى بكر بن الواحد غامضة خاصة وأن الأستاذين عوض خليفا في النظم وبحاز إبراهيم في الدولة الرستمية قد فندا كلام هوبكنز في تفسير لفظة " السمحيين "[1]، ومع ذلك يمكن الاستنتاج بأن أهل الذمة كانوا متنفذين ومن المقربين لأهل الحكم في الدولة الرستمية .

ويدل هذا الوجود النوعي لأهل الذمة، وبروزهم على الحرية التي تمتعوا بها في ظل الدولة الرستمية حيث لم نعثر في المصادر على إشارة تبين أي تمييز ديني أو عقائدي لا نظريا ولا عمليا، وما يمكن أن يكون قد حدث يدخل في جملة ما يحدث في مختلف الدول والمجتمعات.

أما في الدولة الفاطمية فقد شكل أهل الذمة قوة ظلت تتنامى لاسيما وأنه أضيف إليهم عناصر جديدة توافدت إلى بلاد الدولة كما سبق ذكره لسببين : **الأول** توفر مساحة أكبر للحرية الفكرية، والعقدية، والاقتصادية ، **والثاني** استخدام هؤلاء بكثرة في تسيير شؤون الدولة الإدارية والمالية، والعسكرية، والسياسية كجوهر الصقلي القائد العسكري النصراني،وجوذر، وميسور، وقيصر، ومظفر، وابن كلس اليهودي، والذين اسلموا لكن البعض منهم كان إسلامه ظاهريا وظل محتفظا بدينه حسب ما تذكر العديد من المصادر أو ما تستنتجه، كمظفر، وقيصر[2].

وهؤلاء كانوا مستشارين لأئمة الدولة، وقادة جيوشها، ووزراء كجوهر الصقلي، وابن كلس، وقد ظهر تأثيرهم السياسي في مختلف نواحي الدولة لاسيما السياسية والعسكرية، وتوجيهها.

3 . من الناحية الاجتماعية والدينية والعلمية: تذكر المصادر أن إقليم إفريقية ظلت به جماعات من أهل الذمة، وأغلبهم من السكان الأصلين والأفارق الذين حافظوا على ديانتهم اليهودية والنصرانية، وقد استقبلوا إخوانهم في العقيدة من أوربا يبدو أنهم فروا من اضطهاد الكنيسة الفكري والديني لهم، وتعرضهم لإرهاب اقتصادي، وضعط

---

[1] - أنظر ابن الصعير، **أخبار الأئمة** 69، هامش، رقم : 97 ؛ وخليفات، 103، **وإبراهيم بحاز،** 126 .

[2] - النعمان القاضي، **المجالس والمسايرات** ، تحقيق ، الحبيب الفقي، وإبراهيم شبوح، ومحمد اليعلاوي، (تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1978)، 435.

اجتماعي، نذكر على سبيل المثال أنه كان يسكن . بأعمال قصطيلة وتوزر وهى القرى العديدة المعروفة . " قوم من بقايا نفزاوة من البرابرة الذين بقوا هنالك بعد انقراض جمهورهم ولحق العرب بسائر بطون البربر ومعهم معاهدون من الفرنجة ينسبون إلى سردانية نزلوا على الذمة والجزية وبها أعقابهم" [1].

وهؤلاء الأعقاب الذين كانوا في عصر ابن خلدون أي عصر الدولة الحفصية حوالي القرن 8هـ/ 14م لا ريب أن أجدادهم جاءوا المنطقة منذ أمد بعيد، وهو ما يؤكده البكري في إشارة واضحة يقول فيها :" بقرب جلولا منتزها يعرف بسردينية ليس بإفريقية موضع أجمل منه"[2]، ويعلق هوبكنز على هذا الخبر فيقول : بأن هؤلاء كانوا من الأسرى [3] .

لا ريب أن ابن خلدون تحدث عن أعقابهم في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وأن أجداهم أشار إليهم البكري في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي عاشوا ضمن المتجمع المغربي العربي الإسلامي بمكوناته العرقية واللغوية، وأطيافه السياسية، وتنوعه الاقتصادي، فنالوا حريتهم الفكرية والعقدية بعد أن فقدها بعضهم في بلاد كانت تسودها ديانات ومعتقدات أخرى لاسيما البلاد المسيحية فهاجروا منها إلى بلاد المغرب التي توفرت فيها الكرامة والحرية، في ظل تعاليم الإسلام وشريعته السمحة المتسامحة.

كما أنهم قدموا عطاء علميا أثروا به الساحة العلمية والفكرية كابن كلس الذي تنسب إليه الرسالة المذهبة، والكاتب أبي علي منصور العزيزي الجوذري صاحب كتاب سيرة الأستاذ جوذر[4].

النتائج المحصلة:

---

[1] - ابن خلدون عبد الرحمن : العبر ، (بيروت: دار الكتاب اللبناني ، 1967)، 419/6

[2] . البكري ، المغرب، 32.

[3] - النظم، 131.

[4] - أنظر مقمة محققي كتابه، محمد عبد الهادي شعيرة، وكامل حسين، (القاهرة: دار الفكرن 1954)،1.

لا ريب أن هذا الوجود الطبيعي لأهل الذمة ضمن المجتمع المغربي العربي الإسلامي، وفي مختلف أقاليم بلاد المغرب الطبيعية والسياسية قد أثمر نتائج جد إيجابية لا يمكن إخفاؤها، ولا التطاول عليها، أو تحريفها لأغراض سياسية، أوجهوية، أوعرقية، أو فكرية، فهي تحدد هوية سكان هذه البلاد في عمقها التاريخي، وأصالة انتمائها البشري واللغوي، وفي وضوح عقيدتها ورسوخها ، ومن النتائج التي يمكن الوقوف عليها بعد هذا العرض هي كالأتي:

أولا : أن أهل الذمة عاشوا ضمن مجتمع المغرب بشكل طبيعي اختلطوا بمكوناته القبلية والسياسية، وكانوا موزعين في مختلف أقاليمه، سواء كانوا من السكان الأصليين، أو ممن هاجروا إلى هذه البلاد طلبا للحرية وللعيش الكريم.

ثانيا: في ظل عدالة الإسلام وشريعته تمكن أهل الذمة من تبوأ المكانة السامية، واحتلال المناصب العليا في الدول المغربية لاسيما الدولتين الرستمية، والفاطمية، في مجالات الجيش كجوهر القائد، والإدارة والمال كجوذر، وابن كلس، بغض النظر عن أصولهم اليهودية والمسيحية، فقدم هؤلاء عطاء حضاريا، وهو ما يدل على أن الإسلام عالمي النزعة، حيث أن تعاليمه تحث على الاستفادة من كل التجارب الإيجابية لكافة أفراد البشرية .

ثالثا: نظرا لعدالة الإسلام وتعاليمه السمحة، ولهذه الحالة الموصوفة بالحرية الفكرية والعقدية، والتي استفاد منها أهل الذمة أيما استفادة، فقد اهتدى الكثير منهم إلى الإسلام وصاروا علماء أعلام أمثال سعيد بن حكمون أبو محمد النصراني الذي أسلم والده على يد ابن عقال ابن الأغلب في العهد الأغلبي، وأصبح عالما من علماء المالكية أخذ عنهم وأخذوا عنه[1]، وكذا ابن كلس ذو الأصل اليهودي في العصر الفاطمي وغيرهم.

رابعا: مما يستنتج أيضا أن أهل الذمة لم يكن لهم قاض خاص بهم، ولم يؤثر أنهم طالبوا بذلك عكس بعض البلاد الإسلامية كالأندلس، ويدل هذا على أن بلاد المغرب الإسلامي لم يتميز فيها أهل الذمة، ولم يميزوا ، فكانوا مواطنين عليهم ما على

---

[1] - عياض، تراجم، 380.

المسلمين، ولهم ما عليهم، كما وجدوا في أحكام الشريعة الإسلامية، وخاصة أحكام القضاء الإنصاف والعدل الشيء الذي لم يدعوهم إلى المطالبة بقضاء خاص بهم، وقد يرجع ذلك أيضا إلى الظروف التاريخية والاجتماعية التي مر بها المغرب، والطبيعة الجغرافية والسياسة له، كلها عوامل لم تتح الفرصة لنمو مجتمع مستقل بذاته، إلى جانب قلة عدد أهل الذمة بالنسبة للسكان المسلمين، وتوزعهم عبر أقاليم بلاد المغرب ودوله، وقبائله، وتنقلهم الحر والسريع لاسيما أن أغلبهم كان يشتغل بالتجارة.

وختاما أقول

إن هذا العرض عرض لبعض العينات التي تكشف عن طبيعة التركيبة الاجتماعية، والدينية العقدية، والسياسية في بلاد المغرب عموما، وعلى مساحة الحرية الفكرية والدينية التي كانت تتمدد في ربوعه في ظل تعاليم الشريعة الإسلامية، لاسيما أثناء حكم الرستميين بالجزائر " المغرب الأوسط "، وحكم الفاطميين في بلاد المغرب، والمعروف أن حكم الفاطبيين كانت انطلاقته الأولى من الجزائر، وقادته، ورجال دولته من الجزائر، فحري بالجزائر، وبلاد المغرب اليوم أن تكون مرة أخرى مكانا للحريات بمفهومها العام دون التفريط في الهوية والأصالة في عصر أصبح يصطلح عليه بعصر العولمة.